خواطر/ نقائض في المسرح العربي

١/١ ـ المسرح **خلق** : خلق شخوص ، ومواقف ، وافعال . واذا كان التصوير هوجعل الشيء على صورة ، فان التمثيل هو جعل الشيء على مثال . فالتمثيل تصوير آخر . كلاهما ، من الوجهة التدينية ، مضاهاة لفعل يخص الله، الذي هو وحده الخالق. وكما أن الله ،كخالق،هو وحده المصور ، فانه كذلك هو وحده الممثل ، أي « من يضرب الامثال » .

وبقدر ما يتناول التصوير « ما له نفس » وبخاصة الانسان ، يكون نفيا لفعل الله . ومن هنا يبلغ هذا النفي ذروته في التمثيل : ذلك انه تصوير للخَلْق والخُلق معا .

وفي رواية ان **ابن عباس** كان يقول ، فيما يتعلق بالتصوير ، « ان كان احدكم ، ولا بد ، فاعلا ، فليصنع الشجر وما لا نفس له » ـ وذلك مخرج ما ، للتصوير . لكن ، ليس هناك اي مخرج ، من هذه الزاوية ، للتمثيل . ذلك أن التمثيل هو ، جوهريا ، تمثيل (تصوير) « ما له نفس » .

وليست الصورة خطوطا والوانا فقط ، وانما هي فكرة ايضا : فكرة ايهام وتضليل . فكما ان الصورة تبعد الانسان عن الحقيقة ، بل تشوهها او تموهها . فان من يمثل (يصور) انسانا ، لا يقتصر على محاكاة الله ، وانما يلهي كذلك عن رؤية الخليقة ، بوجهها الاصلي الحق . وكما أن الصورة التلوينية حجاب بين ابداع الله وبصر الانسان ، فان الصورة التمثيلية حجاب بين ابداع الله وبصيرة الانسان .

٢/١ ـ ليس المسرح تمثيلا (تصويرا) فقط. المسرح تشخيص من جهة ، ومشاهدة لهذا التشخيص ، من جهة ثانية . انه يقتضي ارادتين: أن يقبل جسد بأن يعرض ذاته ، خلقا وخلقا ، على منصة امام جسد آخر يقبل ان ينظر اليه . المسرح ، بتعبير آخر ، نقيض لمفهومي الحرم والحريم .

ولقد نشأت الثقافة العربية في مناخ الحرم/ الحريم ، ومن هنا التعارض ، نفسيا ، وذهنيا : الحرم « داخل » والمسرح « خارج » . الحرم « الباطن والسرّ » والمسرح «الظاهر والعقلانية». الحرم « عِرْض » والمسرح « عَرْض » .

٣/١ ـ المسرح ، في نشأته ، محاولة للاجابة عن اسئلة اما ان الموروث لم يجب عنها ، واما ان الجواب عنها غير كاف . المسرح ، في جميع الحالات ، محاولة لاجابة تظل **احتمالا** ، اي تظل مكانا لاسئلة اخرى .

ومن طبيعة هذه الاسئلة انها درامية او تراجيدية . وهذا يعني امرين : الاول انها تثير أو تتضمن صراعا ما . والثاني هو أنها شكل من أشكال التوجه ، واستكشاف الانسان والعالم .

عالم المسرح ، بتعبير آخر ، هو عالم **الإشكال** .

ولقد نشأ العربي ضمن ثقافة لا إشكال فيها . بل انها ثقافة ازالت جميع الاشكالات ، على صعيدي الطبيعة وما وراء الطبيعة . السؤال الذي طرحته ، طرحته مرة واحدة والى الابد . ذلك انها قدمته بيقين مطلق « لا يأتيه الشك » ابدا . وكما ان السؤال شامل يتناول الطبيعة وما بعدها ، ما كان وما يكون ، فان الجواب هو كذلك شامل ، الشمول نفسه .

كل سؤال آخر هو ، اذن ، تشكيك في السؤال الاصلي ، ان لم يكن رفضا . وكل جواب آخر هو ايضا تشكيك في الجواب الاصلي، ان لم يكن رفضا . ليس على الانسان اذن أن يسأل أو أن يجيب ، وانما عليه أن يتعلم الجواب الذي أعطي له ، وان يتقن هذا التعلم . ويتم الاتقان في حركة دائمة من التفسير والاستعادة.

انها ثقافة الايمان لا التساؤل ، اعني انها ثقافة المؤمن لا ثقافة المتسائل . وهي من هنا ثقافة وصفية حكمية ، لا تحليلية نقدية .

٤/١ ـ المسرح ، من حيث انه في شكله الاعلى ، درامي أو تراجيدي، انما هو، جوهريا، **قلق** : قلق كيان ، وقلق مصير . وهذا يعني أن الانسان هو ، مسرحيا ، مركز الكون . ويعني ، تبعا لذلك : أن نبدع مسرحا هو أن نعرض للتجارب الحاسمة في حياة الانسان ـ أن نمسرحها ونعيشها كما نطمح ان تكون . أي أن نعيشها ، **استباقا** .

وهذا كله يتم في حركة تكشف عن انفصال بين الانسان من جهة ، والله والكون من جهة ثانية. تكشف، بتعبير آخر ، عن ذات وموضوع.

غير ان الله ، لا الانسان ، هو مركز الكون ـ بحسب الثقافة التي نشأ فيها العربي، تاريخيا. وليس فيها ذات وموضوع بالمعنى الذي نشير اليه . الموضوع فيها امتداد للذات ، والآخر صورة للأنا .

ويتضمن ذلك ان المؤمن لا يحتاج الى الدرامية او التراجيدية ، بل انهما لا تعنيان له شيئا ، ذلك انه لا يقلق ، لانه ، من الناحية العقلية ـ ناحية البحث والتساؤل ، مطمئن لا يعذبه شيء . ومن لا يكون معذبا ، من هذه الناحية ، لا يقدر أن يمارس الدرامية أو التراجيدية ، بل لا يقدر ان يفهمهما ، فنيا ، أو أن يفهم ، على الاصح ، مسوغاتهما الفنية .

٥/١ ـ ومن الناحية الدينية الخالصة ، نشأ العربي في ثقافة تميل الى ارجاء البحث في المشكلات النفسية ـ الانفعالية ، وبخاصة ما يتصل منها بالجنس . ان لم نقل الى اهمالها . المسألة المطلقة ، بالنسبة اليه ، دينية خالصة : يكفي أن يؤمن الانسان ، دينيا ، لكي يمتلك المعرفة الحقيقية الكاملة ، من جهة ، ولكي يعيش مطمئنا سعيدا ، من جهة ثانية . وقد بدا العربي ، بشكل عام ، على صعيد الممارسة، ومايزال يبدو حتى الآن، انه لايشعر بمشكلات اكثر الحاحا وحيوية من المشكلات المتعلقة بالنبوة واليوم الآخر والجنة والنار . لذلك ، قلما يهمه التساؤل حول طبيعة الانسان او طبيعة المادة . فالكون ، بالنسبة اليه ، مليء روحيا وثقافيا، وليس فيه اي فراغ . والصلاة بما يفرضها . وبما تتطلع اليه : ذلك ما يملأ الكون .

هكذا تبدو حياته مشبعة باليقين : يقين الاهداف الواضحة . وليس له الا ان يؤكد ، في سلوكه ، بخاصة ، على الاستقامة في الحياة الدنيا لكي يضمن البقاء الاخروي . لهذا يبدو ان لديه طاقة هائلة لنفي الشك ، اي لنفي الاشكال والتساؤل . فالحياة الكاملة ، بالنسبة اليه ، هي التي يمضيها في ممارسة الايمان . وفي هذه الممارسة لا يجد اي معنى او اهمية للسؤال عن المصير او الوجود . ذلك انه لا يمضي حياته في التفكير ، بل في التقوى .

ان عقله قابل وليس ناقدا .

ادونيس